فالهدهد - إذن - مؤمن عارف بقضية العقيدة والإيمان بالله يَغار عليها ويستنكر مخالفتها ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ.. (٢٤)﴾ [النمل] فهو يعرف أن الله هو المعبود بحقٍّ ، بل ويعلم أيضاً قضية الشيطان ، وأنه سبب الانصراف عن عبادة الله .

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤)﴾ [النمل] فالقضية عنده كاملة بكل تفاصيلها ، ولا تتعجب من مقالة الهدهد واقرأ : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

إنها موعظة بليغة من واعظ مُتمكّن يفهم عن الله ، ويعلم منهجه ويدعو إليه ، بل ويعزّ عليه ويحزّ في نفسه أن ينصرف العباد عن الله المنْعم :

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥)﴾

﴿أَلاَّ .. (٢٥)﴾ [النمل] مكوَّنة من أنْ ، لا ، وعند إدغامهما تُقلَبُ النون لاَماً فتصير : ألاَّ ، فالمعنى : وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم ، لماذا ؟ لألاَّ يسْجدوا ، فهنا حرف جر محذوف كما تقول : عجبتُ من أن يَقْدم علينا فلان ، أو عجبت أن يقدم علينا فلان .

وفي قراءة أخرى[1] : (ألاَ) للحثّ والحض[2] .

(١) هي قراءة الزهري والكسائي وغيرهما ، بمعنى : الا يا هؤلاء اسجدوا [ذكره القرطبي في تفسيره ٧/٥٠٦٨] قال الكسائي : ما كنت أسمع الأشياخ يقرءونها إلا بالتخفيف على نية الأمر .

(٢) قال الزمخشري : فإن قلت : أسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعاً أم في إحداهما ؟ قلت : هي واجبة فيهما جميعاً ؛ لأن مواضع السجدة إما أمر بها ، أو مدح لمن أتى بها ، أو ذم لمن تركها ، وإحدى القراءتين أمر بالسجود ، والأخرى ذم للتارك . [ذكره القرطبي في تفسيره ٧/٥٠٦٩] .

وقلنا : إنه اختار هذه الصفة بالذات ﴿ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٥) ﴾ [النمل] لأنه خبير في هذه المسألة ، حيث يرى الماء في باطن الأرض ، كما يرى أحدكم الزيت في إنائه .

والمراد بالخبْء في السموات : المطر ، والخبْء في الأرض . النبات ، ومنهما تأتي مُقوِّمات الحياة ، فمن ماء المطر وخصوبة الأرض يأتي النبات ، وعلى النبات يتغذَّى الحيوان ، ويتغذَّى الإنسان .

بل إن الحق سبحانه ﴿ يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) ﴾ [النمل] ، كما قال في آية أخرى : ﴿ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٣٨) ﴾ [إبراهيم] ، وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ..(٢٩) ﴾ [آل عمران]

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ (٢٦) ﴾

لما تكلَّم عن عرش بلقيس قال ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل] يعني : بالنسبة لأمثالها من الملوك ولأهل زمانها . فإذا عُرِّف ﴿ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) ﴾ [النمل] فإنه لا ينصرف إلا إلى عرشه تعالى ، فله العظمة المطلقة عند كل الخَلْق .

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) ﴾

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ .. (٢٧) ﴾ [النمل] والنظر محلُّه العين ، لكن هل يُعرف الصدق والكذب بالعين ؟ لا ، فالكلمة انتقلت من النظر بالعين إلى العلم بالحجة ، فهي بمعنى نعلم ، ونقول : هذا الأمر فيه نظر يعني : يحتاج إلى دراسة وتمحيص .

وفى الآية مظهر من مظاهر أدب سليمان ـ عليه السلام ـ وتلطُّفه مع رعيته[1] ، فهو السيد المطاع ، ومع ذلك يقول للهدهد : ﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النمل] والصِّدْق يقابله الكذب ، لكن سليمان ـ عليه السلام ـ يأبى عليه أدب النبوة أن يتهم أحد جنوده بالكذب فقال : ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النمل]

يعنى : حتى لو وقع منك الكذب فلست فذاً فيه ، فكثير من الخَلْق يكذبون ، أو : من الكاذبين مَيْلاً لهم وقُرْباً منهم ، مما يدلُّ على أنه بإلهاماته كنبى يعرف أنه صادق ، إنما ما دام الأمر محلَّ نظر فلا بُدَّ أن نتأكد ، ولن أجامل جندياً من جنودى .

﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ[2] ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

هذا هو النظر الذى ارتآه سليمان ليتأكد من صِدْق الهدهد : أنْ يرسله بكتاب منه إلى هؤلاء القوم ، وهنا مظهر من مظاهر الإيجاز البليغ فى القرآن الكريم ، فبعد أن قال سليمان ﴿ سَنَنظُرُ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [النمل] قال ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [النمل]

فهل كان الكتاب مُعَدّاً وجاهزاً ؟ لا ، إنما التقدير : قال سننظر

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٠٧١/٧) : « فى قوله ﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النمل] دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته ، ويدرأ العقوبة عنهم فى ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم ؛ لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه ، وإنما صار صدق الهدهد عذراً لأنه أخبر بما يقتضى الجهاد » .

(٢) قال وهب (بن منبه) وابن زيد : كانت لها كوة مستقبلة مطلع الشمس فإذا طلعت سجدت ، فسدَّها الهدهد بجناحه ، فارتفعت الشمس ولم تعلم ، فلما استبطأت الشمس قامت تنظر فرمى الصحيفة إليها ، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت ؛ لأن ملك سليمان عليه السلام كان فى خاتمه ، فقرأته فجمعت الملأ من قومها فخاطبتهم بما يأتى بعد . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥٠٧٣/٧) .

أصدقتَ أم كنت من الكاذبين ، فكتب إليها كتاباً فيه كذا وكذا ثم قال للهدهد : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَـٰذَا .. (٢٨) ﴾ [النمل] وقد حُذف هذا للعلم به من سياق القصة .

وقوله : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ .. (٢٨) ﴾ [النمل] يعني : ابتعدْ قليلاً ، وحاول أنْ تعرف ﴿ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) ﴾ [النمل] يعني : يراجع بعضهم بعضاً ، و تناقشون فيما في الكتاب ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا (٨٩) ﴾ [طه]

والسياق يقتضى أن نقول : فذهب الهدهد بالكتاب ، وألقاه عند بلقيس فقرأتْه واستشارتْ فيه أتباعها وخاصتها ، ثم قالت :

﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ (٢٩) ﴾

نلحظ هنا سرعة جواب الأمر ﴿ اذْهَب .. (٢٨) ﴾ [النمل] فبعده مباشرة قالت ملكة سبأ : ﴿ قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) ﴾ [النمل] وهذا يدل على أن أوامر سليمان كانت محوطة بالتنفيذ العاجل ؛ لذلك حذف السياق كل التفاصيل بين الأمر ﴿ اذْهَب .. (٢٨) ﴾ [النمل] والجواب ﴿ قَالَتْ .. (٢٩) ﴾ [النمل] هكذا على وجه السرعة .

ومعنى ﴿ الْمَلأُ .. (٢٩) ﴾ [النمل] هم أعيان القوم وأشرافهم والمستشارون والخاصة ﴿ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) ﴾ [النمل] فوصفتْ الكتاب بأنه كريم[1] إما لأنها سمعتْ عن سليمان ـ عليه

---

(١) وقد ورد في معنى كريم هنا أقوال وآثار ، منها :
- حسن ما فيه : قاله قتادة ، فيما أخرجه عنه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم .
- مختوم : قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن مردويه . [أوردهما السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٥٢] .

السلام ـ وعظمة مُلْكه ، أو : لأن الكتاب سُطِّر على ورق راقٍ وبخط جميل ، وبعد ذلك هو ممهور بخاتمه الرسمى ، مما يدل على أنه كتاب هام ينبغى دراسته وأخْذ الرأى فيه [1] .

﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾

إذن : فهى تعرف سليمان ، وتعرف نُبوّته وصفاته ، وأنه يكاتبهم باسْم الله ويَصْدُر فى دعوتهم عن أوامر الله ، وكان مجمل الكتاب بعد بسم الله الرحمن الرحيم :

﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

إنها برقية موجزة فى أبلغ ما يكون الإيجاز ﴿ **أَلاَّ تَعْلُوا عَلَىَّ** .. ﴿٣١﴾ ﴾ [النمل] العلو هنا بمعنى الغطرسة والزَّهْو الذى يعتاده الملوك خاصة ، وهى مثْله ، ملكة لها عَرْش عظيم ، وأُوتيتْ من كل شىء وكونه يخاطبها بَهذه اللهجة المختصرة البعيدة عن النقاش والجدال ، هذا أمر يحتاج منها إلى نظر وإلى أناةٍ .

لذلك بعد أن أخبرتْ مستشاريها بأمر الكتاب ، وما ورد فيه طلبتْ منهم الرأى والمشورة :

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٠٧٤/٧) : « وصفته بأنه كريم ، لما تضمن من لين القول والموعظة فى الدعاء إلى عبادة الله عز وجل وحسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سباً ولا لعناً ، ولا ما يغير النفس ، ومن غير كلام نازل ولا مستغلق ، على عادة الرسل فى الدعاء إلى الله عز وجل » .

سبق أن تكلمنا في معنى الفتوى ، وأنها من الفُتوة أي : القوة ، وهي مثل : غَنِيَ فلان أي : صار غنياً بذاته ، وأغناه غيره أمدَّه بالغنى ، كذلك أفتاه يعني : أعطاه قوة في الحكم والحجة .

وقالت : ﴿ فِي أَمْرِي .. (٣٢) ﴾ [النمل] مع أن الأمر خاصٌّ بالدولة كلها ، لا بها وحدها ؛ لأنها رمز للدولة وللملْك ، وإنْ تعرض لها سليمان فسوف يُخدش مُلْكها أولاً ، ويُنال من هيبتها قبل رعيتها .

﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) ﴾ [النمل] يعني : لا أبُتُّ في أمر إلا في حضوركم ، وبعد استشارتكم . وهذا يدل على أنها كانت تأخذ بمبدأ الشورى رغم ما كان لها من الملْك والسيطرة والهيمنة .

فردَّ عليها الملأ من قومها :

﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ[(١)] وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) ﴾

يعني : نحن أصحاب قوة في أجسامنا ، وأصحاب شجاعة وبأس أي جيوش فيها عَدَد وعُدة ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ .. (٣٣) ﴾ [النمل] أي : إنْ رأيت الحرب ، فنحن على أُهْبة الاستعداد ، فهم يعرضون عليها رأيهم دون أنْ يُلزموها به ، فهو رأي سياسي لا رأي حربي ، فهي صاحبة قرار الحرب إنْ أرادتْ ﴿ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) ﴾ [النمل] يعني : نحن على استعداد للسِّلْم وللحرب ، وننتظر أمرك .

---

(١) قال قتادة : ذُكر لنا أنه كان أولو مشورتها ثلاثمائة واثني عشر رجلاً ، كل رجل منهم على عشرة آلاف من الرجال . أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم . أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/٣٥٧) ، والقرطبي في تفسيره (٧/٥٠٧٧) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) ﴾

وتعرض بلقيس رأيها ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا .. (٣٤) ﴾ [النمل] ، ذلك لأنهم يريدون مُلْكاً ، فينهبون كل ما يمرُّون به بل ويُخربون ويفسدون لماذا ؟ لأنهم ساعةَ يصل الملك المغير لا يضمن النصر ؛ لذلك يُخرِّب كل شيء ، حتى إذا ما عرفَ أنه انتصر ، وأن الأمور قد استقرتْ له يحافظ على الأشياء ولا يُخربها .

﴿ وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً .. (٣٤) ﴾ [النمل] لأن الملْك يقوم على أنقاض مُلْك قديم ، فيكون أصحاب العزة والسيادة هم أول مَنْ يُبدأ بهم ؛ لأن الأمر أُخذ من أيديهم ، وسوف يسعَوْن لاستعادته ، ولا بُدَّ أنْ يكون عندهم غَيْظ ولَدَد في الخصومة .

أما قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) ﴾ [النمل] فللعلماء فيه كلام : قالوا[1] إنه من كلام بلقيس ، وكأنه تذييل لكلامها السابق ، لكن ماذا يضيف ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) ﴾ [النمل] بعد أن قالت ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً .. (٣٤) ﴾ [النمل]

فالرأى الصواب أن هذه العبارة من الحق[2] - سبحانه وتعالى - ليُصدِّق على كلامها ، وأنها أصابت في رأيها ، فكذلك يفعل الملوك إذا

(١) قاله ابن شجرة فيما نقله عنه القرطبي في تفسيره (٥٠٧٨/٧) وقال : « قيل : هو من قول بلقيس تأكيداً للمعنى الذى أرادته » .

(٢) قاله ابن عباس ، قال : هو من قول الله عز وجل معرفاً لمحمد ﷺ وأمته بذلك ومخبراً به . نقله القرطبي في تفسيره (٥٠٧٨/٧) ، وذكر نحوه السيوطي في « الدر المنثور » (٣٥٧/٦) وعزاه لابن أبي حاتم .

دخلوا قرية ، مما يدل على أن الحق سبحانه رب الخلْق أجمعين ، إذا سمع من عبد من عبيده كلمة حق يؤيده فيها ، لا يتعصب ضده ، ولا يهضمه حقه .

﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾(1)

بعد أنْ ترك لها المستشارون الأمر والتدبير أخذتْ تُعمل عقلها ، وتستخدم فطنتها وخبرتها بحياة الملوك ، فقالت : إنْ كان سليمان ملكاً فسوف يطمع فى خيرنا ، وإنْ كان نبياً فلن يهتم بشىء منه ، فقررتْ أنْ تُرسل له هدية تناسب مكانته كملك ومكانتها هى أيضاً ، لتثبت له أنها على جانب كبير من الثراء والغنى .

ولا بد أنها كانت ثمينة لتستميل الملك ، أو كما نقول (تلوحه أو تلويه) .

﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النمل]

فإنْ كان ملكاً قَبلها ، وعرفنا أن علاجه فى بعض الخراج والأموال تُساق إليه كل عام ، وإنْ كان نبياً فلن يقبل منها شيئاً ، وهذا رأى جميل من بلقيس يدل على فطْنتها وذكائها وحصافتها ، حيث جنَّبتْ قومها ويلات الحرب والمواجهة .

---

(1) قال القرطبى فى تفسيره (٥٠٨١/٧) : « كان النبى ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها ولا يقبل الصدقة ، وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، وإنما جعلت بلقيس قبول الهدية أو ردها علامة على ما فى نفسها ، على ما ذكرناه من كون سليمان ملكاً أو نبياً ، لأنه قال لها فى كتابه ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النمل] وهذا لا تُقبل فيه فدية ، ولا يؤخذ عنه هدية » .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

أى : فلما جاء رسول بلقيس إلى سليمان بالهدية ﴿ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [النمل] فأىُّ هدية هذه ، وأنا أملك مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعدى[1] ؟ ﴿ بَلْ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [النمل] يعنى : اضرب عن الكلام السابق ﴿ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النمل]

أضاف الهدية إليهم ، لا إليه هو ، والإضافة تأتى إما بمعنى اللام مثل : قلم زيد يعنى لزيد ، أو : بمعنى من مثل : إردب قمح يعنى : من قمح ، أو : بمعنى فى مثل : مكر الليل يعنى : فى الليل .

فقوله ﴿ بِهَدِيَّتِكُمْ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [النمل] إما أن يكون المراد : هدية لكم . أى : فأنتم تفرحون إنْ جاءتكم هدية من أحد ، أو لأننى سأردُّها إليكم فتفرحوا بردِّها كمَنْ يقول (بركة يا جامع) أو : هدية منكم . أى : أنكم تفرحون إنْ أهديتم لى هدية فقبلتُها منكم .

فهذه معانٍ ثلاثة لقوله : ﴿ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النمل]

﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

نذكر أن الملكة قالت ﴿ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النمل] فكأنه يستشعر نصَّ ما قالت ، وينطق عن إشراقات النبوة فيه ،

(١) أى : فما أعطانى من الإسلام والملك والنبوة خير مما أعطاكم . فلا أفرح بالمال . (قاله القرطبى فى تفسيره ٧/ ٥٠٨٤) .

فيقول ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا .. (٣٧) ﴾ [النمل]

وهكذا دخلتْ المسألة فى طَوْر المواجـهة ؛ لأن كلامنا كلامُ النبوة التى لا تقبل المساومة ، لا كلام الملك الذى يسعى لحطام الدنيا .

﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) ﴾ [النمل] وكأنه يكشف لهم عن قَوْل ملكتهم : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً .. (٣٤) ﴾ [النمل] وهذه أيضاً من إشراقات النبوة .

ومعنى ﴿ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا .. (٣٧) ﴾ [النمل] تقول : لا قِبَل لى بكذا . يعنى : لا أستطيع مقابلته ، وأنا أضعف من أنْ أقابله ، أو لا طاقة لى به ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً .. (٣٧) ﴾ [النمل] لأنه سيسلب مُلْكهم ، فبعد أنْ كانوا ملوكاً صاروا عبيداً . ثم يزيد فى حِدَّته عليهم ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) ﴾ [النمل] لأنهم قد يقبلون حالة العبودية وعيشة الرعية ، فزاد ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) ﴾ [النمل] لأن الصَّغَار لا يكون إلا بالقَتْل والأَسْر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) ﴾

الملأ : أشراف القوم وسادتهم وأصحاب الرأى فيهم ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) ﴾ [النمل] هنا أيضاً مظهر من إشراقات النبوة عند سليمان ، فهو يعلم ما سيحدث عندهم حينما تعود إليهم هديتهم ، وأنهم سيسارعون إلى الإسلام ، فردُّ الهدية يعنى أننا أصحاب كلمة ورسالة ومبدأ ندافع عنه لا أصحاب مصلحة .

ولما علم أنهم سيأتون مسلمين طلب من جنوده أنْ يأتوه بعرشها ، وحدَّد زمن الإتيان بهذا العرش ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨)﴾ [النمل]

إذن : لا بُدَّ من الذهاب إلى مملكة سبأ وفكِّ العرش ، وحَمْله إلى مملكة سليمان ، ثم إعادة تركيبه عنده ، وهذه مهمة بالطبع فوق قدرة البشر ؛ لذلك لم يتكلم منهم أحد ، حتى الجن العادى لم يعرض على سليمان استعداده للقيام بهذه المهمة :

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ(١) مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ(٢) وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩)﴾

والجن فى القدرة والمهارة مثل الإنس ، منهم القوى الماهر ، ومنهم العَيىّ الذى لا يجيد شيئاً . نقول (لبخة) وكلمة عفريت من تعفير التراب ، وكانوا حينما يتسابقون فى العَدْو بالخيل أو غيرها ، فمَنْ يسبق منهم يُثير الغبار فى وجه الآخر فيُعطّله عن السَّبْق . فقالوا : عفريت يعنى عفَّر من وراءه . أو : المعنى أنه يُعفِّر وجه مَنْ عارضه بالتراب فسُمِّى عفريتاً .

إذن : فالعفريت هو الخبيث الماكر من الجنّ ، وصاحب القوة الخارقة فيهم ، وهو الذى تعرَّض لهذه المهمة ، وقال ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ .. (٣٩)﴾ [النمل]

وهذا كلام مُجْمل ؛ لأن مقام سليمان بين رعيته للحكم أو

---

(١) العفريت : هو النافذ فى الأمر المبالغ فيه مع خبث ودهاء . [لسان العرب - مادة : عفر] .
(٢) قال السدى وغيره : كان سليمان يجلس للقضاء والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس . [تفسير ابن كثير ٣/٣٦٢] .

للمدارسة سوف يستغرق وقتاً : ساعة أو ساعتين مثلاً ، وقد تعهَّد العفريت أنْ يأتى بالعرش فى هذا الوقت يعنى : لن يُؤخِّره إلى جلسة أخرى .

وقوله : ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النمل] يدل على أن هذا العفريت يعلم فخامة هذا العرش وضخامته ، وأنه شىء نفيس يستحق الاعتناء به ، خاصة فى عملية نقله ؛ لذلك قال من ناحية كبره وضخامته « فأنا عليه قوى » قادر على حَمْله ، ومن ناحية نفاسته وفخامته ، فأنا عليه أمين لن أُبدِّد منه شيئاً .

ثم تكلَّم آخر لم يُحدِّده القرآن إلا بالوصف[1] :

﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

الطرف : الجفْن الأعلى للعين .

تكلم العلماء فى هذه الآية : أولاً : قالوا ﴿ الْكِتَابِ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل] يُراد به اللوح المحفوظ ، يُعلم الله تعالى بعض خَلْقه أسراراً من اللوح

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٠٨٧/٧) : « أكثر المفسرين على أن الذى عنده علم من الكتاب آصف بن برخيا وهو من بنى إسرائيل ، وكان صدِّيقاً يحفظ اسم الله الأعظم الذى إذا سئل به أعطى ، وإذا دُعى به أجاب » . وانظر (تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٤) . (والدر المنثور للسيوطى ٣٦٠/٦) .

المحفوظ ، أما الذى عنده علم من الكتاب فقالوا[1] : هو آصف بن برخيا ، وكان رجلاً صالحاً أطلعه الله على أسرار الكون .

وقال آخرون[2] : بل هو سليمان عليه السلام ، لما قال له العفريت ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ .. (٣٩) ﴾ [النمل] قال هو : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠) ﴾ [النمل] لأنه لو كان شخصاً آخر لكان له تفوُّق على سليمان فى معرفة الكتاب .

لكن رَدُّوا عليهم بأن من عظمة سليمان أنْ يعلمَ أحد رعيته هذا العلم ، فمَنْ عنده علم من الكتاب بحيث يأتى بالعرش قبل طَرْفة عين هو خادم فى مملكة سليمان ومُسخر له ، كما أن المزايا لا تقتضى الأفضلية ، وليس شَرْطاً فى الملك أنْ يعرف كل شىء ، وإلا لَقُلْنا للملك : تَعَال أصلح لنا دورة المياه .

أما نحن فنميل إلى أنه سليمان عليه السلام .

وفَرْق كبير فى القدرات بين مَنْ يأتى بالعرش قبل أن يقوم الملك من مجلسه ، وبين مَنْ يأتى به فى طَرْفة عين ، ونَقْل العرش من مملكة بلقيس إلى مملكة سليمان يحتاج إلى وقت وإلى قوة .

والزمن يتناسب مع القوة تناسباً عكسياً : فكلما زادت القوة قَلَّ الزمن ، فمثلاً حين تُكلِّف الطفل الصغير بنقل شىء من مكانه إلى مكان ما ، فإنه يذهب إليه ببُطْء ويحمله ببُطء حتى يضعه فى مكانه ، أما الرجل فبيده وفى سرعة ينقله ، وهذه المسألة نلاحظها فى وسائل

---

(١) قاله ابن عباس ، ويزيد بن رومان ، وقتادة . انظر تفسير ابن كثير (٣/٣٦٤) وقاله الحسن أيضاً (الدر المنثور ٦/٣٦٠) .

(٢) قال ابن عطية : قالت فرقة هو سليمان عليه السلام . نقله القرطبى فى تفسيره (٥٠٨٧/٧) ولكنه قال قبله : « لا يصح فى سياق الكلام مثل هذا التأويل » .

المواصلات ، ففرْق بين السفر بالسيارة ، والسفر بالطائرة ، والسفر بالصاروخ مثلاً .

وهذه تكلّمنا عنها فى قصة « الإسراء والمعراج » فقد أسْرى برسول الله ﷺ بهذه السرعة ؛ لأن الله تعالى أسْرى به ، ونقله من مكان إلى مكان ؛ لذلك جاءت الرحلة فى سرعة فوق تصوُّر البشر .

وما دام الزمن يتناسب مع القوة ، فلا تنسب الحدث إلى رسول الله ، إنما إلى الله ، إلى قوة القوى التى لا تحتاج إلى زمن أصلاً ، فإنْ قلتَ : فلماذا استغرقتْ الرحلة ليلةً وأخذت وقتاً ؟ نقول : لأنه ﷺ مرَّ بأشياء ، ورأى أشياء ، وقال ، وسأل ، وسمع ، فهو الذى شغل هذا الوقت ، أمّا الإسراء نفسه فلا زمنَ له .

لذلك قبل أن يخبرنا الحق - تبارك وتعالى - بهذه الحادثة العجيبة قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ⦗١⦘ ﴾ [الإسراء] أى : نزِّهه عن مشابهة غيره ، كذلك مسألة نَقْل العرش فى طرْفة عين لا بُدَّ أن مَنْ فعلها فعلها بعون من الله وبعلم أطلعه الله عليه ، فنقله بكُنْ التى لا تحتاج وقتاً ولا قوة ، وما دام الأمر بإرادة الله وقوته وإلهامه فلا نقول إلا : آمين .

وفى قوله للجن : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. ⦗٤٠⦘ ﴾ [النمل] تحدٍّ لعفريت الجن ، حتى لا يظن أنه أقوى من الإنسان ، فإنْ أراد الله منحنى من القوة ما أتفوّق عليك به ، بل وأُسخِّرك بها لخدمتى .

ومن ذلك قوله سبحانه عن تسخير الجن : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ[1] وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ .. ⦗١٣⦘ ﴾ [سبأ]

---

(١) الجفان : جمع جَفْنة ، وهى القصعة الكبيرة جداً . والجوابُ جمع جابية ، وهى الحوض الذى يُجبى فيه الماء . وقال ابن عباس : أى كالجوبة من الأرض . وقال العوفى عنه : كالحياض. وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم . [تفسير ابن كثير ٣/٥٢٨] .

وليعلموا أنهم جـهلاء ، ظلُّوا يعملون لسليمـان وهو ميت ومُتكِئ على عصاه أمامهم ، وهم مرعوبون خائفون منه .

والتـحـدى قـد يـكون بالعُلُوِّ ، وقـد يكون بالـدُّنُو ، كـالذى قـال لصاحبـه : أنا دارس باريس دراسة دقيقة ، وأسـتطيع أنْ أركب معك السيـارة وأقول لك : أين نـحن منها ، وأمـام أىّ محل ، وأنا مُـغْمض العينين ، فـقال الآخر : وأنا أستطيع أن أخبـرك بذلك بدون أن أُغمض عَيْنَىّ .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا رَآهُ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل] أى : العرش ﴿ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَـٰذَا مِن فَـضْلِ رَبِّي .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل] إمـا لأنه أقـدره على الإتيـان به بنفـسه ، أو سخّـر له مَنْ عنده علم من الكتـاب ، فأتاه به ، فـهذه أو ذاك فضل من الله .

﴿ لِيَبْلُوَنِي .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل] يخـتبـرنى ﴿ أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْـفُرُ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل] يعنى : أشكر الله فأُوفَّق فى هذا الاُخـتبار ؟ أم أكفـر بنعمة الله فأخفق فيه ؟ لأن الاختبار إنما يكون بنتيجته .

والشكر بأن ينسب النعمة إلى المنعم وألاَّ يلهيـه جمال النعمة عن جلال واهبها ومُسْديها ، فيقول مثلاً : إنما أوتيته على علم عندى .

وقوله : ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل] أى : أن الله تعالى لا يزيده شُكْرنا شيئاً ، فله ـ سبـحانه وتعالى ـ صفات الكمال المطلق قبل أنْ يشكره أحد ، فمَنْ يشكر فـإنما يعود عليه ، وهو ثمرة شُكْره .

﴿ وَمَن كَفَرَ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل] يعنى : جحد النعمة ولم يشكر المنعم ﴿ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل] أى : عن شكره ﴿ كَـرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل]

أى : يعطى عبده رغم ما كان منه من جحود وكفر بالنعمة ؛ لأن نعمه تعالى كثيرة لا تُعَدُّ ، وهذا من حلمه تعالى ورأفته بخَلْقه .

لذلك لما نتأمل قوله تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم] وقد تكررت هذه العبارة بنصِّها فى آيتين من كتاب الله ، مما جعل البعض يرى فيها تكراراً لا فائدة منه ، لكن لو نظرنا إلى عَجُز كل منهما لوجدناه مختلفاً :

فالأولى تُختتم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم]

والأخرى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل]

إذن : فهما متكاملتان ، لكلٍّ منهما معناها الخاص ، فالأولى تبين ظلم الإنسان حين يكفر بنعمة الله عليه ويجحدها ، وتضيف الأخرى أن الله تعالى مع ذلك غفور لعبده رحيم به .

كما نلحظ فى الآية : ﴿وَإِن تَعُدُّوا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم] استخدم (إنْ) الدالة على الشك ؛ لأن أحداً لا يجرؤ على عَدِّ نعَم الله فى الكون ، فهى فوق الحصر ؛ لذلك لم يُقْدم على هذه المسألة أحد ، مع أنهم بوسائلهم الحديثة أحصَوا كل شىء إلا نعم الله لم يتصَدَّ لإحصائها أحد فى معهد أو جامعة ممن تخصصت فى الإحصاء .

وهذا دليل على أنها مقطوع بالعجز عنها ، كما لم نجد مثلاً مَنْ تصدَّى لإحصاء عدد الرمل فى الصحراء . كما نقف عند قوله سبحانه : ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ .. (٣٤)﴾ [إبراهيم] ولم يقُلْ : نعَم الله ، فالعجز عن الإحصاء أمام نعمة واحدة ؛ لأن تحتها نعَم كثيرة لو تتبعتها لوجدتها فوق الحصر .

ثم لما جاءته بلقيس أراد أن يُجرى لها اختبارَ عقلٍ ، واختبارَ إيمان :

﴿ قَالَ نَكِّرُوا(١) لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) ﴾

قوله : ﴿ نكِّرُوا .. (٤١) ﴾ [النمل] ضده عرِّفوا ؛ لأنه جاء بالعرش على هيئته كما كان عندها فى سبأ ، ولو رأتْه على حالته الأولى لقالتْ هو هو ، ولم يظهر له ذكاؤها ؛ لذلك قال ﴿ نكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا .. (٤١) ﴾ [النمل] يعنى : غيِّروا بعض معالمه ، ومنه شخص متنكر حين يُغيِّر ملامحه وزيّه حتى لا يعرفه مَنْ حوله .

﴿ نَنظُرْ أَتَهْتَدِى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) ﴾ [النمل] تهتدى إيماناً إلى الإسلام ، أو تهتدى عقلياً إلى الجواب فى مسألة العرش .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) ﴾

جاء السؤال بهذه الصيغة ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُك .. (٤٢) ﴾ [النمل] ليُعمِّى عليها أمر العرش ، وليختبر دقة ملاحظتها ، فلو قال لها : أهذا عرشك ؟ لكان إيحاءً لها بالجواب إنما ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُك .. (٤٢) ﴾ [النمل] كأنه يقول : ليس هذا عرشك ، فلما نظرتْ إليه إجمالاً عرفتْ أنه عرشها ، فلما رأتْ ما فيه من تغيير وتنكير ظنتْ أنه غيره ؛ لذلك اختارتْ جواباً دبلوماسياً يحتمل هذه وهذه ، فقالت ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ..(٤٢) ﴾

(١) قال ابن عباس : نزع منه فصوصه ومرافقه . وقال مجاهد : أمر به فغُيِّر ما كان فيه أحمر جُعل أصفر ، وما كان أصفر جُعل أحمر ، وما كان أخضر جُعل أحمر غيّر كل شيء عن حاله . وقال عكرمة : زادوا فيه ونقصوا . وقال قتادة : جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره وزادوا فيه ونقصوا . [تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٤] .